

الجد والهزل في الثقافة العربية الإسلامية سؤال السعادة...

رضا الأبيض (*)

I - تصدير

قال أبو سعيد الخدري: سمعتُ رسول الله (صلعم) يقول «ما من شيء يُصيب العبدَ المؤمن من وصبٍ أو نصبٍ أو حزنٍ أو ألمٍ يهيمه إلا كَفَرَ اللهُ تعالى عنه من سيئاته»؛ ورُوي أن الرسول كان متواصل الحزن دائماً التفكير⁽¹⁾.

قال النبي (صلعم) «رَوْحُوا القلوبَ ساعة بعد ساعة فإن القلوبَ إذا كَلَّتْ عميت»؛ وقال (صلعم): «لا خير في فيمن لا يطرب». وكان النبي يضحك حتى تبدو نواجذه⁽²⁾.

II - مقارنة الإشكالية

كيف نحيط بمسألة الجد والهزل في الثقافة العربية والأمر على ما يبدو ينحو إلى التناقض والاختلاف والتباين تباينَ الحزن والطرب؟

لا شك في أن المسألة مخصوصة وشائكة لا ندعي الإحاطة بها والتعمق فيها. وإنما هي خواطر عرضت وأُسئلة ألحّت..

فالمسلمون على تنوع مواقفهم وتباين مواقعهم وسلوكاتهم لم ينفِ واحدٌ منهم يوماً أن سنّة الرسول فعلاً وقولاً مَرْجَعٌ من مراجعهِ ورافدٍ من روافده..

والمسلمون على اختلاف مشاربهم وتنوع غاياتهم حشريين كانوا أو بدويين

(*) باحث تونسي.

(1) عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية، ط 1، دار الجيل، 1990، ص 138.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 6، ط 2، دار مكتبة الهلال، 1990، ص 285.

متشددین أو متسامحین.. لم ینفِ واحدٌ منهم يوماً أن الرسول (صلعم) «كان خلقه القرآن».

والرسول كما نرى يأمر بالحنن ويدعو إليه ویأتیه. فهو مجلبة للرحمة والغفران وهو وسیلة للسعادة. وليس المسلم بحریص على شيء حرصه على رحمة الله وسعادة الحیاة..

والرسول كما نرى يأمر بالطرب ويرغب فيه ويدعو إلى الترویح ویأتي التفكُّه فهو مجلبة للرحمة ووسيلة للسعادة. وليس المسلم بحریص على شيء حرصه على الطمانیة والسعادة والرحمة.

فأي سلوك سیسلكه المسلمُ أحزنُّ أم طربُّ؟ وهل بإمكانه أن یجمع بينهما في الوقت نفسه فیکون حزیناً ضاحكاً (أو ضاحكاً حزیناً)؟

تبدو المسألة عسيرة. ولقد كانت كذلك في تاریخ المسلمين.

فهذه فرقةٌ أو أكثر أثرت الحزن والبكاء واعتبر شیعته أن حزنَ کُلِّ الناس ألقي عليهم.

تکلموا في الحزن واعتبروه فضیلة لا یکتمل التدين إلا بها. واجتهدوا في طلبه. فاختلفوا عن غیرهم.

ولم یقف الأمر عند الاختلاف بل تراکم لیصبح خلافاً. وللخلاف مظاهره كالنفی والتشريد وتعطيل الحوار والتبادل..

فأصبحت الفرقة جسماً سياسياً وثقافياً واجتماعياً متميزاً عن سائر «جسم الأمة». وتلك فرقة أو أكثر أحبَّت الظرف وأثرت الهزل واعتبر شیعته وأنصارها أن لهو کُلِّ الناس ألقي عليهم.

تکلموا فيه واعتبروه فضیلة واجتهدوا في طلبه. فاختلفوا عن غیرهم وكان مصيرُهم مصیرَ الفرقة / الفرق الأولى.

اختلفوا وخالفوا فشرّدوا وشُرّدوا وعطّلوا وعُطّلوا.

تمثّل الجسم الأول في الصوفية والبکائين والمتزهدین وبعض الشعراء وآخرین من العامة والخاصة.

وتمثّل الجسم الثاني في الظرفاء والمکدين والمتنذرين وبعض الشعراء والأدباء ومن الخاصة والعامة.

فأین تکمن سعادة المسلم؟

أفي الانقطاع عن البكاء أم في الانقطاع إليه؟

أفي الانقطاع عن الهزل أم في الانقطاع إليه؟

وأي «المذهبيين» شرعي يوافق الشريعة (القرآن والسنة) وأيهما طبيعي يوافق طبيعة الإنسان؟

بل أيّ شريعة نقصد وإلى أيّ طبيعة نحتكم ؟

ليست المسألة عسيرة كما ذكرنا. ونحن نعلم أن أكبر الخصومات من.. تاريخ المسلمين وثقافتهم دارت وتدور حول قائمة الحلال وقائمة الحرام وما يندرج في كل واحدة منها⁽³⁾.

فأين نُدرج الجدّ وأين نُدرج الهزل؟

إننا في حاجة إلى رؤية شمولية لفهم هذه الإشكالية. شمولية بمعنى تتعدّد فيها زوايا النظر لئلا تسقط في الحكم المتسرّع والتبرير التعسفي. وهي رؤية تدعونا إلى اقتراح الملاحظات التالية منهجيات عمل:

1 - البحث عن الهزل والظرف في مذاهب المتشيعين للحزن والبكاء في مقالاتهم وسلوكهم، وإنْ بدت لنا دائرته ضيقة فإنها بالبحث والتنقيب قد تتوسّع، مستفيدين من علوم الإحصاء والمقارنة.

2 - البحث عن الجدّ والحزن والبكاء في مذاهب المتشيعين للظرف والهزل في مقالاتهم وسلوكهم اليومي، وإنْ بدت لنا دائرته ضيقة فإنها بالبحث والإستقصاء قد تتوسّع أيضاً.

3 - عقد الصلة بين كلّ مقال تشييع فيه صاحبه للظرف أو البكاء بسياقه الذي يندرج فيه نفسياً كان أو اجتماعياً حضارياً. بالاستفادة من علم أسباب النزول والبلاغة والأنثروبولوجيا..

4 - الوعي بخصائص اللغة العربية وخاصة بميلها الثابت «وربما بشيء من الغلوّ إلى استخدام الأضداد. فكلّ الأشياء مبنية على الأضداد فالخير يقابله الشر والأنثى يقابلها الذكر والسكون تقابله الحركة»⁽⁴⁾.. و «الجدّ نقيض الهزل»⁽⁵⁾.

ولما كانت هذه الدراسة لا تدّعي الإحاطة بكلّ جوانب المسألة ولم تَرْمِ القول الفصل فإنني أكتفي بالتوقّف عند نصّين هامين يندرجان في صلب الإشكالية..

النص الأول:

مقدمة أبي الفرج عبد الرحمان بن علي الجوزي لكتابه أخبار الحمقى والمغفلين

(3) انظر ما أثارته الفنون مثل المسرح والتصوير.. من ردود فعل في بداية هذا القرن.

(4) محمد الصادق الأسود: الجدّ والهزل في الأدب العربي قبل النهضة. ضمن «القطاع الهامشي»..

(5) لسان العرب، مادة ج. د. د.

عاش في القرن السادس للهجرة. حنبلي. عُني كثيراً بالردّ على المتصوّفة⁽⁶⁾ كان متشدّداً..

النص الثاني:

الباب الثلاثون من كتاب عوارف المعارف لعبد القاهر بن عبد الله السهروردي، عاش في القرن السابع للهجرة. صوفي. عُني بالردّ على خصوم المتصوّفة.

قال ابن الجوزي: «... فإن قال قائل ذكرُ حكايات الحمقى والمغفلين يُوجب الضحك. وقد رويتم عن النبي (صلعم) أنه قال: إنَّ الرجل ليتكلّم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا. فالجواب: إنه محمول على أنه يضحكهم بالكذب... وقد يجوز للإنسان أن يقصدَ إضحاك الشخص في بعض الأوقات. في أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لاكلّمَن رسول الله لعلّه يضحك قال قلت: لو رأيت ابنة زيد امرأة عمّي سألتني النفقة فوجأت عنقها». فضحك رسول الله (صلعم).

وإنما يُكره للرجل أن يجعلَ عادته إضحاك الناس. لأن الضحك لا يُدْمُ قليلاً. فقد كان رسول الله (صلعم) يضحك حتى تبدو نواجذه. وإنه يُكره كثيره لما روي عنه عليه السلام أنه قال: كثرة الضحك تميّت القلب».

والارتياح إلى مثل هذه الأشياء في بعض الأوقات كالمُح في القدر⁽⁷⁾.

وبذلك يكون ابن الجوزي قد شرّع نزوع المسلم إلى الضحك والإضحاك. ووجد لذلك سنداً في سنّة الرسول قولاً وفعلاً.

ثم حاجج خصومه. وردّ عليهم الأمر محملاً النصوص المروية تفسيراً مختلفاً (.. إنه محمول على كذا وكذا..).

ولم يطلق ابن الجوزي هذا النزوع وهذه الرغبة بل قيدها بشروط منها المقدار فقبل القليل وردّ الكثير. ومنها اختيار المقام فالضحك يشترط الوعي بالمكان والزمان (.. في بعض الأوقات..).

ونحن إذا نظرنا في كلّ المقدمة والكتاب وجدنا ابن الجوزي يبيّن فوائد الضحك والهزل المعرفيّة والترفيهيّة والصحيّة. وجدناه يؤكّد كلّ مرة على مبدأ التوازن والاعتدال.

قال السهروردي: «من أخلاق الصوفية [كذا.. وكذا..] ومن أخلاق الصوفية السهولة وليّن الجانب والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم وترك التعسّف والتكلف. وقد روي في ذلك عن رسول الله (صلعم) أخبار. وأخلاق الصوفية تحاكي أخلاق رسول الله

(6) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ط 2، دار الفكر، 1368هـ.

(7) ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين، ط 1، دار الفكر العربي، 1990، ص 14.

(صلعم) وكان يقول عليه الصلاة والسلام «أَمَا إِنِّي أَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»... وسئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله (صلعم) إِذَا خَلَا فِي الْبَيْتِ؟ قالت: كَانَ الِیِّنَ النَّاسِ، بِسَامًا ضَحَّاكًا.. وروی بكر بن عبد الله قال: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صلعم) يَتَمَازِحُونَ حَتَّى يَتَبَادَحُونَ بِالْبَطِيخِ فَإِذَا كَانَتِ الْحَقَائِقُ كَانُوا هُمُ الرِّجَالُ...»⁽⁸⁾.

يَبْزُرُ إِذَا السَّهْرُورِيُّ نَزَّوعَ الْمُسْلِمِ إِلَى الضَّحْكِ وَالظَّرْفِ وَيَجِدُ لَهُ مَرَاجِعَ فِي.. سَنَةِ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ.

يَحَاجُّ خُصُومَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْحَاجَّ ظَاهِرًا كَمَا رَأَيْنَا فِي نَصِّ ابْنِ الْجُوزِيِّ. وَيَنْفِي عَنِ الصُّوفِيَةِ خُشُونَةَ الْجَانِبِ وَصُعُوبَةَ الطَّبْعِ. وَلَكِنَّهُ يَشْتَرِطُ أَيْضًا الْإِعْتِدَالَ. يَقُولُ «لَا يَقِفُ فِي هَذَا الْمَعْنَى عَلَى حَدِّ الْإِعْتِدَالِ إِلَّا صُوفِيٌّ.. قَاهِرٌ لِلنَّفْسِ عَالِمٌ بِأَخْلَاقِهَا وَطَبَاعِهَا سَائِسٌ لَهَا بِوُفُورِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقِفَ فِي ذَلِكَ عَلَى صِرَاطِ الْإِعْتِدَالِ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّقْرِيطِ»⁽⁹⁾.

وَالْإِعْتِدَالُ عِنْدَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَمَامِ الْعِلْمِ وَحَسَنِ سِيَاسَةِ النَّفْسِ «الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ». ثُمَّ يَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ حَالَةُ الْمُرِيدِ مَعَ اللَّهِ وَالْهَزْلُ لَا كَحَالِ الشَّيْخِ. قَالَ «لَا يَصْلُحُ الْإِكْثَارُ مِنْ ذَلِكَ لِلْمُرِيدِينَ الْمُبْتَدِئِينَ لِقَلَّةِ عِلْمِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِالنَّفْسِ وَتَعْدِيهِمْ حَدَّ الْإِعْتِدَالِ»⁽¹⁰⁾.

أَمَّا عَنْ حَالِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصُّوفِيَةِ فَيَقُولُ: «فَلِلصُّوفِيَةِ الْعُلَمَاءُ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ تَرْوِيحٌ يَعْلَمُونَ حَاجَةَ الْقَلْبِ إِلَى ذَلِكَ»⁽¹¹⁾.

يَبَيِّنُ إِذَا السَّهْرُورِيُّ فَوَائِدَ الْهَزْلِ وَيُلَخِّصُ عَلَى ضَرُورَةِ مَعْرِفَةِ حَدِّ الْإِعْتِدَالِ فَلَا إِفْرَاطَ وَلَا تَقْرِيطَ.

وَبِذَلِكَ يَكُونُ ابْنُ الْجُوزِيِّ الْحَنْبَلِيُّ وَالسَّهْرُورِيُّ الصُّوفِيُّ قَدْ اتَّفَقَا مِنْ حَيْثُ اخْتَلَفَا. وَنَكُونُ قَدْ وَصَلْنَا إِلَى الْاسْتِنْتَاجَاتِ التَّالِيَةِ:

- 1 - الْجَدُّ وَالْهَزْلُ وَجِهَانِ لِعَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ. مِنَ الْعَبَثِ أَنْ يَنْفِي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ. هُمَا مَتَعَايِشَانِ فِي ذَاتِ الْفَرْدِ يُؤَكِّدَانِ وَحِدَتَهَا وَتَوَازُنَهَا وَاسْتِمْرَارَهَا.
- 2 - لِكُلِّ فَرْدٍ مَهْمَا كَانَ مَوْقِفُهُ أَوْ مَوْقِعُهُ نَصِيبٌ مِنَ الْجَدِّ وَالْهَزْلِ وَالْاِخْتِلَافِ كَمِّيِّ بَيْنِ النَّاسِ.

- 3 - الْجَدُّ وَالْهَزْلُ ظَاهِرَتَانِ نَفْسِيَتَانِ وَحَضَارِيَتَانِ تَعَايِشَتَا فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ وَتَقَاتَمَتَا - كَسَائِرِ الشُّعُوبِ الْآخَرَى - وَتَلَازَمَتَا.

قَدْ تَفَتَّرَ ظَاهِرَةٌ - فِي حِينِ تَقْوَى الْآخَرَى - وَذَلِكَ بِحَسَبِ شُرُوطِ تَارِيخِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ مَا. وَلَكِنَّهَا لَا تَنْدَثِرُ أَوْ تَمُوتُ.

(8) (9) (10) (11) عبد القاهر السهروردي: عوارف المعارف، ط 2، دار الكتاب العربي، 1983، ص ص 255، 259.

- 4 - الاختلاف بين الظاهرتين لم ينفِ قطّ تحاورهما فكم من جدّ لبسَ ثوب الهزل وكان أنفذ. وكم من هزل لبسَ ثوبَ الجدّ وكان أبلغ⁽¹²⁾.
- 5 - فعل التهميش والتهميش المضاد الذي حدث في لحظات تاريخية كثيرة كان نتاجاً لأحادية الرأي والموقف من سائر «النوازل» الثقافية والاقتصادية والسياسية ومن ضمنها مسألة الجدّ والهزل.
- 6 - المسلمون باختلاف مواقفهم ومواقفهم حرصوا في مقالاتهم على الاعتدال. ولكنّ الممارسة التاريخية والسلوك اليومي كان كثيراً ما ينحرف عن النص.
- 7 - بعض الاختلاف من تباين وسائل النظر وأدوات التحليل (العقل، الدين، الفطرة...) وبعضه من اختلاف الغايات. وبعضه بسبب اختلاف المواقع (الهامش/ المركز، العامة/ الخاصة.. إلخ) والازمنة (صدر الإسلام، القرون المتأخرة..) وبعضه بسبب اللغة..

III - عودٌ على بدءٍ

صدّرنا هذا البحث بنصوص وتساءلنا «كيف نحيط بمسألة الجدّ والهزل والامر كما يبدو ينحو إلى التناقض والاختلاف...؟».

يظلّ السؤال مشروعاً. ونحن لا ندّعي الإجابة الحاسمة عنه.

ولكن ما بدا من تناقض وتباين لا يحملنا على القول إن في الامر غرابة.

ليس في الامر أي غرابة. والتناقض لا يطال سنّة الرسول (صلعم) وإنّما هو الإنسان إذا اندرج في تاريخه يخضع لقانون النسبية. فيختلف بعضه عن بعض. قد يحزن وقد يضحك بل قد يأتي هذا السلوك وهو يريد ويقصد الآخر. وليس قولهم: فلان انقطع إلى البكاء أو فلان انقطع إلى اللهو سوى اقتصار على ما ظهر وغلب.. أو رغبة في نقاء وهمي أو سعي إلى تمايز أني.

(12) قال الجاحظ في الحيوان ردّاً على الذين عابوا كتابه «... وقد غلّط فيه ما رأيته في اثنايه من مزح لم تعرف معناه ومن بطالٍ لم تطلع على غورها ولم تدّر لِمَ ابتليت ولا لايّ علّة تكلفت وائي شيء أريغ بها ولايّ جدّ أحتمل ذلك الهزل... ولم تدّر أن المزاح جدّ إذا أجتلب ليكون علّة للجدّ وأن البطالة وقار ورزاة إذا تكلفت لتلك العاقبة». الحيوان، ج 1، ص 37.

قائمة المصادر والمراجع

I - المصادر

- ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين، ط 1، دار الفكر العربي، 1990.
- ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ط 2، دار الفكر، 1368هـ.
- الجاحظ: الحيوان، ط 2، دار الجيل، د. ت.
- عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية، ط 2، دار الجيل، 1990.
- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ط 2، دار مكتبة الهلال، 1990.
- عبد القاهر السهروردي: عوارف المعارف، ط 2، دار الكتاب العربي، 1983.

II - المراجع

- «الجدّ والهزل في الأدب العربي قبل النهضة»، مقال: محمد الصادق الأسود، تعريب: محمود المصفار، ضمن كتاب «القطاع الهامشي في السرد العربي». سلسلة قبسات، عدد 1، دار البيروني، د. ت.